نظرات في الأدب والفن

بحث مقدم الى مؤتمر اليونسكو

للأستاذ ابراهيم جمال الدين الرمادى

قبل أن نلقى هذه النظرات الجديدة على الأدب والفن نحب أن نتساءل ما هو الأدب وما هو الفن . أما الحديث عن الأدب من الناحية اللغوية فأكبر الظن أنه حديث معاد قد قتل بحثاً وتمحيصاً كما يقولون ، ولكن هذا لا يمنع أن نلم بهذا الحديث إلماماً . فقد قيل إن كلمة أدب أصلها دأب والدأب هو العادة وقد جمعت على آداب على حد قولهم آبار فى جمع بئر كما يقول نلينو . وقيل إن كلمة أدب من المأدبة وقيل غير ذلك أما الحديث عن الأدب من الناحية التعريفية فهناك تعريف يكاد يجمع عليه جمهور الأدباء وهو أن الأدب أن تجمع من كل شىء بطرف . فلا يصح للمرء أن يكون أديباً إلا إذا كان ذا معرفة بالمعارف العامة سواء كانت فى اللغة وفروعها من نحو وصرف وبلاغة ، أو كانت فى الدين من قرآن وتفسير وحديث ، أو فى الفلسفة والسياسة والأخلاق ؛ بل لقد تجاوز التعريف فى عصرنا من العصور كل هذه الحدود فشمل المعرفة بألعاب الرد والشطرنج وما إليها . ولست أكتب هذا البحث لأتحدث عن الأدب بهذا المعنى إنما أكتبه لأتحدث عن الأدب من الناحية المعروفة فى جميع اللغات وهو أنه الشعر والنثر

والحديث عن الفن من الناحية اللغوية أكبر الظن أنه حديث معاد أيضاً ، ولكن لا بأس من أن نلم به إلماماً ونعرض له عرضاً . فالفن فى اللغة النوع ، والأفانين الأساليب وهى أجناس الكلام وطرقه . والرجل المتفنن هو الرجل ذو الفنون ، وامتن الرجل فى حديثه أو فى خطبته بمعنى جاء بالأفانين . والفن فى اللغات الأوربية هو القدرة والبراعة فى أداء عمل من الأعمال كالنحت أو الرسم ؛ أو هو الملكة التى ترتفع عن الملكات الإنسانية المعتادة فى أداء لون من الألوان .

والحديث عن الفن من الناحية التعريفية حديث طويل مستفيض لكن قبل أن نخوض فى هذا الحديث نحب أن نفرق بين لونين من

المرض ينظر ثم لا يعد يداً . ونظرت إليه نظرات فيها التوسل والرجاء فقال لى فى كبر: «هات كذا قرشاً وأنا أزيح عنك الخبث» فأشرت إليه من خلال آلامى أننى لا أملك شيئاً ، فانصرف عنى وخلفنى أعانى ضنى الألم ومضض القذارة . ومضت أيام

واستصرخته — ذات مرة — ليعينني على بعض شأنى فما أتى إلى السمع ، فنزلت من على السرير أتحامل على نفسى ، فما برحت أن دارت بى الأرض فاقد الوعى لا أجد الرحمة فى قلب ولا أحس الشفقة فى فؤاد

وغبرت أياماً فى الدار التى أنشئت على عهد من الإنسانية السامية لتمسح على أوجاع الفقير والعانى بيد رفيقة طيبة ... غبرت أياماً أعانى الوحشة وأقاسى الضياع ، لم تهف نفس أبى نحوى ولا رفت على أبوته .

آه لطالما قضيت الليل سابحاً فى أمواج من العبرات ... عبرات الشباب العابس الحزين حين ينطوى عنه أحب الناس إلى نفسه وأقربهم إلى قلبه

وجاء عمى — بعد أيام — يزورنى فتكلم لسانه كلاماً طويلا ولكن يده لم تبض بدرهم واحد أشبع به نهم المرض أو أستجدى عطفه ، فودعته — حين ودعنى — بعبرات قلبى

وجاء الطبيب يزورنى ؛ فهمس المرض فى أذنه بكلمات دفعته إلى أن يكتب على بطاقتى «يخرج اليوم!».

آه ! ما للقلوب الإنسانية قد تحجرت فصفرت من الإنسانية وخلت من الرجولة ! أأخرج من المستشفى إلى الشارع ولما أتماثل للشفاء ؟ وطردت — بعد ساعة من المستشفى ... من الدار التى أنشئت على عهد من الإنسانية السامية لتمسح على أوجاع الفقير والعانى بيد رفيقة طيبة ... خرجت لألقى بنفسى على طوار الشارع أرمق الناس بنظرات راجفة فيها الضيق والألم

لا عجب — يا قلبى — فإن الإنسانية حين تتهاوى تسفل فتتضع فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية !

فاضل محمود حبيب

ألوان الفن : الأول هو الفن المجرد والثانى هو الفن الجميل . أما الفن المجرد فهو الناحية التطبيقية والمرانية للعلم ؛ فالصياغة مثلا فن لعلم الكيمياء لأنها تطبيق ومران على المواد الكيمائية . والبناء مثلا فن لعلم الهندسة لأنه تطبيق ومران على الرسوم الهندسية وهلم جرا . ولهذا أطلقت كلمة فن على كثير من الحرف والصنائع كالتجارة والحدادة والتدريس والخطابة . ولكن الفن الجميل هو الترجمة عن الشعور بالجمال أو بالقبح . وتنقسم الفنون الجميلة إلى الحفر والنحت والتصوير وهى فنون تمتع النظر فهى فنون بصرية ، وإلى الموسيقى والشعر وهى فنون تمتع السمع فهى فنون سمعية . وقد جاء فى لاروس أن الفن معروف عند العامة من الناس بجمع أو تركيب أشياء محسوسة بوساطة اللمس أو السمع لغرض الانتفاع منها مادياً أو أدبياً ؛ فالصائغ مثلا يجمع حبات الدر النضيد وقطع الذهب البراق كيما يصوغ منها قلائد وأقراطاً لابتغاء الزينة . وقل مثل هذا عن النجار الذى يصنع من قطع الخشب مناضد ومقاعد جميلة لابتغاء الجلوس ولابتغاء الزينة بعد ذلك . أما فى الموسيقى والشعر والحفر فالأمر يختلف فيها عنه فى الصياغة والبناء ؛ فالفنان لا يؤدى عمله ليترجم عن عاطفة جاشت فى صدره أو لإحساس خلج قلبه ، وهذا العمل قد لا يجدى نفعاً للانسانية مثلما يجدى مقعد النجار أو بيت المهندس . ونعنى بالفائدة الفائدة المادية لا الفائدة المعنوية ، لأن الشعر والموسيقى فوائد معنوية كبرى لا يمكن أن يتطرق إليها النكران أو يرقى إليها الشك ...

وأحب هنا أن أسجل ملاحظة لا بد منها عن هؤلاء الشعراء أو أولئك الموسيقيين الذين يتكسبون بفنهم والذين يتخذون الفن وسيلة لعيشهم وذريعة إلى قضاء مآربهم ؛ فهؤلاء الشعراء الذين يقفون على أعتاب الملوك والخلفاء والأمراء يكيلون لهم المديح كيلا براء من الفن ، لأنهم لا يفكرون فيه بقدر ما يفكرون فى العطايا والهدايا ! حدثنى بربك أى فن يتمثل فى هذا البيت .

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار !

حدثنى بربك أى فن يتمثل فى هذا البيت وفى أمثاله ثم قل لى ألا يهدم هؤلاء الشعراء صرح الفن هدماً ويحطمونه تحطيما ...

هل فعلوا كما فعل لودفيج بيتهوفن عند ما دعى إلى تأليف لحن موسيقى يصور انتصارات نابليون وعظمته وقوته وجبروته لقاء قدر عظيم من المال فألف هذا اللحن ثم لم يلبث أن لاح أمامه شبح الفن فمزق اللحن تمزيقاً

العمل الفنى إذن تعبير عن شعور الفنان ؛ ولكن ينبغى أن نقرر هنا هذه الحقيقة وهى أن الذوق يلعب فى الفن دوره ، ولكنه مع هذا يلتقى عند جل الفنانين التقاء جمال وروعة وبهاء . وقد عرف وولتير الذوق أنه تطلع انسانى نحو جمال أسمى . وينبغى أن نقرر هذا حقيقة أخرى وهى أن الفن ليس تقليداً للطبيعة كما كان يظن أرسطو إنما هو إبراز ما هو جميل فى الطبيعة وحذف كل ما هو مشوه ، فقد يرى الرسام شجرة من الأشجار ويريد أن يرسمها فلا يرسمها بهيئتها التامة وشكلها الكامل إنما يرى من الفن أن يقلم بعض أفنانها ويقطع بعض أوراقها حتى تخرج أكثر ملاءمة للفن الجميل .

فالفن إذن كدوحة سامقة قد رسخت أسافلها فى الطبيعة وامتدت فروعها فى الخيال . ولما كان الشعر قسيما للنثر والشعر والنثر مكونان للأدب والأدب فن من الفنون فإنى أوثر أن نتحدث بعض الشىء عن تعريف الفن عند الفلاسفة والعلماء . قال أفلاطون الفن عبارة عن إظهار ما هو غامض فى الطبيعة . وقال أستاذه أرسطو الفن تقليد للطبيعة . وقال فرنسيس بيكون الفن روح الفنان مضافة إلى الطبيعة . وقال ريزنج الفن هو المظهر الخارجى للاله . وقال أميل زولا الفن هو الطبيعة ترى خلال شعور الفنان . وقال كوزان الفن هو التعبير الحر للطبيعة . وقال تين : الفن إخراج خاصيات الأشياء وإظهارها فى شكل بارز . وقال جيته : الفن الجميل كقوس قزح لا يرتسم إلا فوق سطح معتم ، ولهذا كان الحزن عنصراً مناسباً للعبقرية

أما حديث أوسكار وايلد عن الفن فهو حديث ذو شجون ؛ وقد قدم به مجموعة من أقاصيصه الرائعة فى الأدب الانجليزى فقال الفن صانع الأشياء الجميلة . وغاية الفن أن يكشف عن نفسه وأن يخفى شخصية الفنان ؛ وما من فنان يشتكى الحدب أبداً . فالفنان يستطيع التعبير عن كل شىء فى الحياة . وأرقى الفنون من ناحية القلب الموسيقى ، وأرقى الفنون من ناحية الشعور التمثيل ، وللفن ظاهر مكشوف ورمز مستور ؛ ومن يتجاوز الظاهر يجازف بكل شىء ، ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز والفن ليس صورة الحياة بل صورة المستعرض للحياة وليس للفن نفع على الإطلاق !

ونحن أمام هذه التعاريف المختلفة والتعابير المدة عن الفن نكاد

تخرج نتيجة واحدة ، وهي أن الفن ترجمة عن الجمال والقبح سواء اتصل هذا الجمال أو القبح بالعالم الداخلي وهو النفس ، أو العالم الخارجي وهو الطبيعة. والفن وأعني به الفن الجميل لا يسعى وراء منفعة ولا يجري وراء غاية سوى الغاية الفنية التي يشعر بها الفنان .

وقد قال جوليان هكسلي رئيس لجنة التربية الثقافة بمؤتمر اليونسكو إن الفن إبداع فردي يقام فيه وزن للكيف والقيمة والفنون جزء من المعنى الثقافي للحياة أما العلم فيهدف إلى وحدة المعرفة وإلى إثراء كمي في العالم . ولكن جوليان فاته أن يذكر هذا الفن الذي يمكن أن تتذوقه الأمم جميعاً وهو الفن الذي سنتحدث عنه بعد حين. لكن قبل الحديث عن الفن بمعناه الواسع أحب أن أتحدث عن الأدب بوصف الشعر فناً من الفنون .

من الباحثين من ينظر إلى الأدب عندما يؤرخه نظرة زمانية فيقول هذا أدب جاهلي وهذا أدب أموي وهذا أدب عباسي وهلم جرا أو هذا أدب كلاسيكي وهذا أدب رومانتيكي. ومن الباحثين من ينظر إلى الأدب عند ما يؤرخه نظرة مكانية فيقول هذا أدب مصري وهذا أدب أندلسي وهذا أدب عراقي أو هذا أدب ربقي وهـــذا أدب ايرلندي وهلم جرا ... .

ومن الباحثين من ينظر إلى الأدب عندما يؤرخه نظرة تجمع بين الزمانية والمكانية . والفريق الذي ينظر إلى تاريخ الأدب نظرة زمانية إنما يجاري الزمان الذي يمر عليه والأحداث التي تحدث له. والفريق الذي ينظر إلى تاريخ الأدب نظرة مكانية ينكر أثر الزمان ؛ فالزمان لا وجود له، والمكان هو الإسم للظرف المادي أو الوجودي . والبيئة المادية مؤثرة في الأدب من حيث أنها وعاء محسوس يؤثر تأثيراً حسياً مادياً عملياً يمكن إحساسه ويمكن قياسه وربما تأثر هذا الفريق بفكرة إلغاء الزمان أو بفكرة الزمان الوجودي إن أردت الدقة في التعبير ؛ تلك الفكرة التي دعت بعض الفلاسفة إلى إلغاء الحاضر إلغاء. فالطفل لا يدري متى ينمو ولا كيف ينمو؛ والكلمة التي يتفوه بها الإنسان في الحاضر لا تلبث أن تكون ماضية فلا يمكن أن نجزم بوجود الحاضر . هذا في الفلسفة . أما في الأدب فالزمان اعتبارا لا أكثر ولا أقل عند هذا الفريق. والبيئة هي المؤثر الأول في الأدب؛ فبيئة بلاد العرب تختلف عن بيئة مصر ، ومن ثم كان أدب بلاد العرب يختلف عن أدب مصر : أما الفريق الثالث كما قلت فهو الفريق الذي يقف وسطاً بين المذهبين فتارة يميل إلى جهة اليمين وتارة يجنح إلى جهة اليسار !

وعندي نظرة جديدة إلى الأدب والفن بل إلى تاريخ الأدب والفن أيضاً، وهذه النظرة لا تعبأ بالزمان ولا تعبأ بالمكان ولا تعبأ لشيء مطلقاً قدر ما تعبأ بذاتية الأدب وذاتية الفن .

والشيء الذي أدعو إليه هو أن أوجد أدباً عالمياً يمكن أن يقرأه المصري ويقرأه الفرنسي ويقرأه الانجليزي ويقرأه الأمريكي فيعجب كل منهم به ، وأن أوجد أدباً عالمياً أيضاً فيقرأ رجل القرن العشرين نتاج أدب القرن الأول أو ما قبل القرن الأول فيعجب به أيضاً وأنا عند ما أريد أن أوجد هذا الأدب لا أوجده من العدم لأنه موجود فعلاً، فلا يزال كتاب التراجيديا يأكلون من فتات مائدة هوميروس كما يقولون. ومازلنا نقرأ الالياذة والأوديسة فنعجب بهذه العواطف المتطاحنة وهذه الانفعالات الصاخبة في شعرهما. ولا زلنا نقرأ شعر الغزل المصري القديم فنجد فيه رقة وعذوبة وجمالا. ويكفي أن أذكر قطعة غزلية مصرية قديمة لتكون دليلا على هذا القول ومن احتاج إلى أكثر من ذلك فليرجع إلى كتابي شعراء الحب في العالم . اسمع قول الشاعر

«إذا قدمت خفق قلبي وطوقها بذراعي فشعرت بالسعادة في أعماق قلبي. وإذا دنت مني وفتحت ذراعيها إلي شعرت كأن أزكى روائح العطور تعصرني. فإذا أدنت شفتها من شفتي ولثمتني فهناك السكر ولا خمر !»

ومن الشعراء العرب من تحدث عن سقيا الخمر بالنظرات ومن رضاب حسناء برود وما شابه هذا مما لا داعي لتفصيله في هذه المجالة

بل من منا من لم يقرأ قصيدة لامارتين البحيرة التي صور فيها أوقات الهوى مع حبيبته جوليا فوق صفحة البحيرة الرقراقة وتحت أضواء النجوم! انظر إليه في السماء الزرقاء وبين إيقاع المجاذيف وهمسات الأمواج فلم يعجب بلامارتين وقصيدته قدر أو أكثر من إعجابه ببركة البحيرة ووصف معالمها وأركانها !

بل من منا من لم يقرأ فصائد أدحار ألن بو المترجمة أو ماشوز الشاعر الأمريكي الرائع ولا سيما في الغزل فلم تفض عيناه بدمعة ولم يتأوه قلبه بحسرة ولم يتحرك لسانه بآهة !

بل من منا لم من يقرأ شكسبير ومسرحياته الرائعة التي اقتحمت البلاد

جميعاً ووجدفيها الشرق والغرب أشخاصاً يشعرون بشعوره ويحسون بأحاسيسه؟! بل من منا من يسمع أقوال لقمان الحكيم منذ فجر الزمان وحكم الفرس فلم يعجب بالحكمة والخبرة ودرس الزمان! بل من منا من لم يقرأ حكم طرفة وزهد المعرى وأبي العتاهية الذى يصدق على كل آن ومكان ؟ إن الناس مهما اختلفت أذواقهم وطباعهم فإنهم لابد ملتقون سواء رضوا أم لم يرضوا فى الإنســـانية . فمشاعرهم واحدة وتفكيرهم فى منشأه واحد . ولهذا كان أقرب أبواب الأدب الذاتى إلى ذوق العالم بابا الغزل والحكمة، لأن الأول يختص بالعاطفة والثانى يختص بالعقل. أما الأبواب الأخرى فى الشعر فتتأثر بعوامل أخرى أكثر وضوحاً وبياناً ... وكان أقرب أبواب الأدب الموضوعى إلى ذوق العالم أدب القصة والمسرحيات

بينت حتى الآن أن هنالك أدبا عالمياً نعجب به جميعاً ، ولكنى أحب أن أقرر شيئاً وهو أننى لا ألقى بهذه النظرة لتكون قضية مسلماً بها فهذا لا يكون فى الأدب . لأن الأدب لا ينتهى عند قرار كما هو الحال فى العلم، فنحن عند ما نقول مثلا إن قيس ليلى زعيم مدرسة شعر الحب العنيف ، وعمر بن أبى ربيعة زعيم مدرسة شعر الحب الصريح ، لا نعنى من لفظة مدرسة المعنى المعروف فى الفلسفة مثلا . فأنا أعرف شعراً لقيس ليلى يدخله فى دور الفاحشين، وأنا أعرف شعراً لعمر بن أبى ربيعة يدخله فى دور المتورعين . فالمسألة فى الأدب ميل غالب بدلا من أن نترك الأدب كالبحر الخضم الذى ليس له شاطئ وليس له قرار .

فعندما أقول إذن إن هناك أدبا عالمياً لا أعنى أن هذا الأدب يجب أن يعجب جميع أفراد العالم، أنما أعنى أن الإعجاب بكاد يكون الميل الغالب بين الأمم نحو هذا الأدب. وهذه الفكرة موجودة فى الطبيعة أيضاً فعندما نقول منطقة الغابات المدارية تليها منطقة السافانا لا نعنى أن النباتات تأتى عند حد فتختلف اختلافا عظيما وهو الاختلاف بين الغابات المدارية والسافانا، انما تتدرج النباتات المدارية حتى تصبح من نباتات السافانا. فليس الخط الفاصل بين المنطقتين اذن إلا خطا وهميا يعصم من الالتباس، وهكذا الحال فى الأدب فالقضايا ليست إلا قضايا تقريبيه إن صح هذا الضرب من التعبير عند المناطقة .

إذن فهنالك أدب عالمى لا يدرس بالزمان ولا بالمكان؛ وإذن هنالك شعراء عالميون لا يدرسون بالزمان ولا بالمكان؛ بل هنالك شعر عالمى إن أردت أن تكون أكثر دقة، فالشاعر قد يبدع حينا؛ وقد يسف حينا آخر، وقد يرتفع تارة إلى آفاق البلاغة وينحدر تارة إلى أعماق الركاكة لاختلاف مزاجه وتباين عاطفته. ومهمة الأديب فى العصر الحديث بل مهمة اليونسكو فى العصر الحديث يجب أن تكون البحث عن هذا الأدب وهذا الشعر لنشره بين الناس جميعا وترجمته بجميع اللغات . فأوديب الملك مثلا استمرت تغزو الأدب الأوربى زمنا طويلا فتأثر بها كورنى وفولتير وفيكتور هيجو، ومسرحية فاوست لكرستوف مارلو تأثر بها جيته فيما بعد ولا زالت تمثـــل حتى اليوم على المسرح فيعجب بهـــا الجمهور اعجابا شديداً ويتعجب منها ومن الشياطين العابثة بالأرواح عجبا عظيما . بل لم نذهب بعيداً ونحن نجد إقبال الجمهور المصرى على السينما الغربية وهى فن من الفنون يزداد على إقباله على السينما العربية باضعاف وأضعاف .

وكما أدعو إلى أدب عالمى أدعو إلى موسيقى عالمية يحاول الموسيقار الحديث بل تحاول هيئة اليونسكو ابرازها إلى الوجود . ولست أعنى بالموسيقى العالمية هى تلك الموسيقى الصاخبة الداوية فى المراقص أو الفالس والتانجو والرومبا والفوكس تروت انما أعنى الموسيقى التى تطمئن اليها النفوس جميعاً سـواء ارتفعت إلى تصوير شوبان وشوبير وتشيوفسكى أو انحدرت إلى صفير الصافر أو زفير الزافر أو عزيف العازف على الناى على ضفاف البحيرة أو حافة الغدير ! فقد يصفر الفلاح الرقيق الحال فى نايه فيخرج منه نغم حلو طروب يهز أوتار القلوب يعجب الفلاحين فى مصر والمثقفين فى مصر كما يعجب الفلاحين والمثقفين من الفوزاق فى روسيا أو غير روسيا . ومهمة اليونسكو إذن هى البحث عن هذا النغم ومهمة الموسيقيين من وراء اليونسكو البدء فى العمل .

وحينئذ يمكن أن تتفاهم الشعوب وحينئذ يمكن أن تتآلف الأرواح بين الشعوب ويتجنب العالم قدر الاستطاعة الحروب لا لشىء إلا لأن الأمم استطاعت أن يفهم بعضها بعضاً عن طريق الأدب والفن

ابراهيم جمال الدين الرمادى